قصة قوم صالح

الحمد لله منجي أوليائه ومهلك أعدائه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: عباد الله: حديثنا اليوم عن قوم صالح – عن ثمود–

الذين جابوا الصخر بالواد، والذين فجروا العيون وغرسوا الحدائق والبساتين، ونحتوا من الجبال بيوتًا، وأمِنوا غوائل الدهر، ونوائب الحدثان، وكانوا في سعة من العيش ورغد ونعمة وترف، وصب الله عليهم نعمه صباً، ولكنهم لم يشكروا الله، ولم يحمدوا له فضله، بل زادوا عتوًّا في الأرض وفسادًا، وبُعدًا عن الحق واستكبارًا، وكلما زادهم الله من خيراته زادوا من معاصيهم، فعبدوا الأوثان من دون الله، وأشركوا به، وأعرضوا عن آياته، وظنوا أنهم في هذا النعيم خالدون، وفي تلك السّعَة متروكون، فبعث الله –عز وجل– إليهم صالحًا عليه السلام، وكان من أشرفهم نسبًا، وأوسعهم حلمًا، وأصفاهم عقلاً، فدعاهم إلى عبادة الله، وحضّهم

على توحيده، فهو الذي خلقهم من تراب، وعمر لهم الأرض، واستخلفهم فيها، وأسبغ عليهم نِعَمه ظاهرة وباطنة، ثم نهاهم أن يعبدوا الأصنام من دونه، فهي لا تملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا تُغني عنهم من الله شيئًا.

ذكّرهم بأواصر القُربى التي تربطه بهم، ووشائج النسب التي تصل بينه وبينهم، وهو يحب نفعهم، ويسعى في خيرهم، لا يضمر لهم سوءًا، ولا يريد بهم شرًّا، وأمرَهم أن يستغفروا الله، ويتوبوا إليه مما اقترفوا من ذنب، واجترحوا من إثم، فالله عز وجل لمن دعاه قريب، ولمن سأله مجيب، ولمن أناب إليه سميع. فما كان منهم إلا أن صمَّت منهم الآذان، وغُلّفت القلوب، وعمِيت الأبصار، فأنكروا عليه نبوَّته، وهزئوا بدعوته، ثم لاموه فيها، أنّبوه على صدورها منه، وهو الراجح عقلاً، الصائب رأيًا.

وقالوا له: يا صالح: عهدناك ثاقب الفكر، مصيب الرأي، وقد كانت تلوح عليك ملامح الخير وأمارات الرشد، وكنا ندّخرك لملمّات الدهر، وكنا نرجو أن تكون عُدتنا حين يحزب الأمر ويشتد الخطب، فَنَطَقْتَ هُجرًا، وأَتَيْتَ نُكرًا. فما هذا الذي تدعونا إليه؟! أتنهانا أن

نعبد ما كان يعبد آباؤنا، وقد درجنا عليه، ونشأنا مُستمسكين به! إننا لفي شك مما تدعونا إليه مُريب، لا نطمئنّ إلى قولك، ولا نثق بصدق دعوتك، ولن نترُك ما وجدنا عليه آباءنا ونميل مع هواك وزيْغِك. فحذرهم صالح عليه السلام من مخالفته، وأعلن فيهم رسالته، وذكّرهم بما أسبغ الله -عز وجل- عليهم من نِعمه، وخوّفهم بأسه وبطشه، وهو لم يسألهم أجرًا على الهداية، ولا يطلب جزاءً على النصيحة، وإنما أجره على الله رب العالمين، فآمن به بعض المستضعفين من قومه، أما الملأ الذين استكبروا فأصرُّوا على عنادهم، وتمادوا في طغيانهم، واستمسكوا بعبادة أوثانهم.

وقالوا له: لست إلا بشرًا مثلنا، وما أنت بأشرفنا نسبًا، أو أفضلنا حسبًا، وفينا من هو أحق منك بالنبوّة، وأجدر بالرسالة، فما حملك على انتهاج هذه الطريق، وسلوك تلك السبيل، إلا رغبتك في تعظيم نفسك، وتطلُّعك إلى الرياسة على قومك حاولوا صده عن دينه، وصرفه عن دعوته، وزعموا أنهم إن اتبعوه حادوا عن الصراط المستقيم، وخالفوا الطريق القويم، فأعرض عن بهتانهم، ولم يستمع إلى غوايتهم.

وقال: يا قوم: إن كنت على بيّنة من ربي، وآتاني منه رحمة، ثم اتبعت طريقكم وعصيت ربي، فمن يمنعني من عذابه أو يعصمني من عقابه؟! ما تزيدونني غير تخسير فلما وجدوا منه استمساكًا برأيه، واعتصامًا بحقه، خاف المستكبرون من قومه أن يكثر تابعوه، ويعظم ناصروه، وعزّ عليهم أن يكون المرشد للقوم، والملجأ عند الشدائد، فينصرف الناس عنهم، ويفزعون إليه في كل شأن، ويطرقون بابه كلما حزبهم أمر وأهمهم، فخافوا زوال قوتهم، وذهاب سلطتهم، وأرادوا أن يظهروا للناس عجزه.

فطلبوا منه أن يأتيهم بآية يتبيّنون بها صدق دعوته، ومعجزة ظاهرة تصدّق رسالته. فقال لهم: ﴿هذه ناقة لها شِرْبٌ ولكم شِربُ يوم معلوم﴾. ﴿فذَرُوها تأكل في أرض الله﴾.

فلم ير الناس قبلاً ناقة تستأثر يومًا بمائهم، ولا شك أن صالحًا عليه السلام قد علم أن المنكر يُفزعه ظهور حجّة خصمه، ويخيفه وضوح برهانه، بل يحرك كامن غيظه ومستور حقده قيام شاهده، وقوة آيته،

لذلك خاف إقدامهم على قتل الناقة، وحذّرهم من الفتك بها، فقال لهم: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾.

مكثت الناقة بينهم زمنًا تأكل في أرض الله، ترِد الماء يومًا، وتصدر عنه يومًا، ولا شك أن قيامها قد استمال إليه كثيرًا من قومه، إذ استبانوا بها صِدْقَ رسالته، وأيقنوا بصحة نبوّته. فأفزع ذلك المستكبرين من قومه، فقالوا للمستضعفين من قومه وهم الذين أشرق نور الإيمان في قلوبهم، وعمرت به صدورهم، واستضاءت إليه أفئدتهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

فلم تلن قناة القوم، ولم يخفِّفوا من غيظهم، بل أعلنوا كفرهم، وصارحوهم بتكذيبهم، وقالوا لهم: ﴿إِنَّا بِالَّذِى ءَامَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾.

كل ذلك وغيره حملهم على الإقدام على عقر الناقة، ودفعهم إلى قتلها، رغمًا من تحذيرهم بالعذاب وتوعُّدهم بالهلاك إن مسُّوها بسوء من نبي الله صالح عليه السلام.

ومع ذلك بقوا زمنًا لم يجرؤا على إيذائها، ولم يتقدم أحدٌ إلى مسها بسوء، ثم عزموا على قتل الناقة، آية صالح البينة، وحجته البالغة، فانطلقوا إلى الناقة يرصدونها، وخرجوا يرقبونها.

فلما صدرت من وردها، ورجعت عن مائها، رماها أحدهم بسهم انتظم عظم ساقها، وابتدرها: قدار بن سالف -عاقر الناقة- بالسيف، فكشف عن عرقوبها، فخرت على الأرض، ثم طعنها في لَبتها فنحرها: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾.

ورجعوا يزفون البشرى إلى أعوانهم، واستخفوا بوعيد الله، وقالوا: يا صالح: ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين، قالوا ذلك تحديًا لصالح عليه السلام وللحديث بقية.

أقول ما سمعتم وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

**** ****

الخطبة الثانية

الحمد لله القائل: (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا *إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا).

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاستكمالاً لحديثنا عن قصة صالح عليه السلام مع قومه نقول وبالله التوفيق: إن صالحًا عليه السلام قال لقومه بعد أن عقروا الناقة وقتلوها: قد حذرتكم إن أصبتموها بأذى، ولكنكم قد اجترحتم الذنب، فتمتعوا في داركم ثلاثة أيام يأتيكم بعدها العذاب، ويحل عليكم في نهايتها العقاب، ذلك وعد غير مكذوب. ومع ذلك كذبوا وعادوا في الضلال واستعجلوا العذاب تحديًا، ثم قالوا لصالح: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾. أي تشاءمنا بك وبمن معك، واجتمع نفر من قومه تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون وتقاسموا على أن يتسللوا إليه في جُنْح الظلام، والناس نيام، فيقتلوه وأهله دون أن يراهم أحد، وجعلوا ذلك

سرًّا بينهم، ظنًّا منهم أن ذلك يعصمهم من العذاب، ولكن الله -عز وجل- لم يُمهلهم، بل أحبط مكرهم، ونجّاه مما أرادوا به، وأنقذه الله والذين آمنوا معه من العذاب، وأنزل بالكافرين عقابه تصديقًا لوعده: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

ولم يمنعهم ما شادوا من قصور شامخة، وما جمعوا من أموال وافرة، وغرسوا من جنات واسعة، ونحتوا من بيوت آمنة.

ورأى صالح عليه السلام ما حلّ بهم؛ إذ أصبحت جثثهم هامدة، وديارهم خاوية، فتولى عنهم والأسى يملأ نفسه، والحسرة تقطع نِياط قلبه: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾.

وقد روى البخاري ومسلم عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: لما مر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالحجر -أي في غزوة تبوك-، قال لأصحابه: "لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين، إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم".

ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادي.

عباد الله: هذه لمحة عن قصة نبي الله صالح عليه السلام مع قومه، أسأل الله لي ولكم الاعتبار والموعظة وأخذ الدروس المفيدة منها. فاقرؤوا كتاب الله واتعظوا بما جاء فيه من العبر والعظات والقصص.

وصلوا وسلموا -عباد الله- على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-.